هل الدين أمر ممكن؟
قراءة في سؤال ومقاربة الفيلسوف محمد إقبال

أ. د. نعيمة إدريس
أستاذ محاضر (أ)
بالمدرسة العليا للأساتذة قسنطينة (الجزائر)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة :

عاش"محمد اقبال" مأساة المسلمين وسُوء أحوالهم في الهند وعاصر أوضاعهم المزرية، وجميع سائر بلاد المسلمين التي كانت تحت وطأة الاحتلال الأجنبي، و لقد تمكنت إنجلترا عام ١٧٩٠ أن تُسيطر على سواحل "ميلي بار" و هكذا تمكنت من مدّ نفوذها إلى معظم أجزاء الهند[١]، فتم الاستيلاء على الهند سياسيا وانتقلت سلطة الحكم رسميا من الهند إلى بريطانيا، وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية التي قامت في القرن ١٦وهي دولة "المغول "بالهند، هذه الأخيرة وصلت بالحكم الإسلامي إلى أرقى صوره وبنفوذ المسلمين إلى أوسع مداه[٢].

كانت الهند أقرب الأجزاء إلى الغرب وكانت في الوقت ذاته جوهرة التاج البريطاني ولم يكن أبدا من اليسير التفريط بها[٣]، حيث قام الهنود بعدة ثورات لإزالة الحكم البريطاني، ففي سنة ١٨٥٧ حدثت ثورة الهند الكبرى المعروفة بثورة "سيباهي" أي العصيان وكان يتزعم هذه الثورة الضباط المسلمون الذين أضطهدوا عقب فشل الثورة وقاموا بمصادرة أراضيهم[٤] و عدّ الانجليز المسلمين العدّو الأول لهم، ولهذا عملوا على إجهاض حركاتهم، ونتيجة لهذه المعاملة السيّئة تخلف المسلمون في جميع الميادين بعدما كانوا أصحاب سلطة و شأن عظيم.[٥]

هذه الظروف كانت سببا رئيسا دفع بالمفكر والفيلسوف والأديب المسلم محمد اقبال إلى العمل على تغيير الأوضاع السيئة، حيث كان علما مهما من أعلام التجديد والإصلاح الفكري الإسلامي الحديث، وغدت نتاجاته الفكرية والفلسفية والأدبية مرجعيات مهمة في تأصيل الذات والمحافظة على الهوية، وفي التعبير عن شخصية المسلم في ظل المواجهات الحضارية التي عاشها، حيث عاش إقبال في بيئات اجتماعية وثقافية وفكرية متنوعة، وتعرض إلى مصادر معرفية وثقافية مختلفة، ساعدته في نضج أفكاره و صقل شخصيته، واعتزازه بذاته الثقافية وممارسته النقدية وإنتاجه الفكري، حيث كان للثقافة القرآنية دور مهم في تشكيل تفكير إقبال واكتشاف روح الثقافة الإسلامية، ومميزاتها عن غيرها من الثقافات،

1- إسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر، تاريخ العالم الاسلامي الحديث و المعاصر، عمان، دار المريخ للطباعة و النشر د س، د ط، ص ٣٢٢

2- عمر عبد العزيز، محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية في العصر الحديث، دمشق، دار المعرفة للنشر و الطباعة، د س، د ط، ص ١٧-١٨

3- حسن العمراني، محمد اقبال وبديع الزمان النورسي، مجلة حراء، العدد٧، جوان٢٠٠٧، ص٤٢

4- المرجع السابق ذكره، تاريخ العالم الاسلامي الحديث و المعاصر، ص٣٢٢

5- محمد اقبال، فلسفة الذات، ترجمة رائد جبار كاظم، سوريا دار نتوى للطباعة و النشر، ، ٢٠٠٩، دط، دس ص٢٤-٢٥-٢٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى هضم الثقافة الغربية عن طريق الدراسات العلمية من خلالها تعرفه على هاته الثقافة فلم يغره بريقها، بالإضافة إلى استقائه من شخصية الرومي والأفغاني، وبالتالي صاغ فلسفة ثرية صاغها في قوالب شعرية في مؤلفات أغلبها شعرية و أخرى نثرية.

بداهة حضور الدين:

عُرف الدين والسلوك المتدين منذ وجود الإنسان بألوان وطقوس مختلفة، لهذا اعتبره علماء الاجتماع ظاهرة اجتماعية لازمت الإنسان منذ وجوده إلى يومنا هذا. فاتجاه النفس إلى الاعتقاد في الله أو في أي شيء آخر على أنه خارق له قدرات غير محدودة أمر معروف في تاريخ الإنسان وعلاقته بالأديان الوضعية أو السماوية، إذ الإيمان بهذه القوة وردّ الحوادث الطبيعية والبشرية إليها، أمر طبيعي عند معظم البشر.و المتأمل في تاريخ الفكر الفلسفي عامة، وفي جانبه الدّيني خاصة، يجد بأنّ الفلسفة قد خصت ومنذ نشأتها فكرة أو مبحث الألوهية بالاهتمام الأكبر خاصة مسألة البحث في العلّة الأولى، وكل ما يتعلق بها من قسم الإلهيات لكونه يبحث عن علّة العلل التي هي مصدر هذا الوجود.

ولم يتوقف البحث في هذه المسألة عند الفكر اليوناني، بل توسعت وتعمقت دائرة البحث في العصور الوسطى مسيحية كانت أم إسلامية، وليس عصر الفلسفة الحديثة استثناء على الرغم مما يعرف به، من كونه عصرا تحول فيه الفكر الإنساني من البحث حول الدين إلى البحث حول الطبيعة والإنسان. على النقيض من ذلك ظلّ ومازال الدين مسألة جوهرية موجهة لتفكير الفلاسفة المحدثين من بيكون، وديكارت، وهوبز، مرورا بباسكال، واسبينوزا، وباركلي، وهيوم، وكانط.

الاستقراء المتأني لنصوص هؤلاء الفلاسفة يكشف أن اهتمام الفلسفة الحديثة بالدين لا يقل عن اهتمام فلسفة العصور الوسطى، وإنْ كان هذا الاهتمام من طبيعة مختلفة وتحكمه طرق ورؤى فلسفية جديدة أدت إلى ظهور "فلسفة الدين" بما تحويه من أسئلة ومضامين، تسائل وتحلل وتنتقد كل ممنوع ومقدس، فهي بحث عقلي غير مقيّد بالمسلّمات الدينية على نحو قبلي، بحث لا يتحرّك نحو هدف مرسوم مسبقا، وإنّما يجتهد عبر المقارنات والنّقد إلى تأويل يشبع العقل، ويحل إشكالات الواقع الراهن.

كذلك العالم الإسلامي رغم ما يعانيه من تخلف، فقد شهد حركات إصلاح ديني على غرار ما حدث في أوروبا بقيادة زعماء من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، كما ظهرت كتابات حاولت الاجتهاد في المسائل الدينية التي مسها الجمود والتعطيل من ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كتاب "**تجديد التفكير الديني في الإسلام**"، الكتاب بفصوله الستة يحلل كل القضايا المتصلة بالدين على رأسها الألوهية والنبوة والتصوف باعتبارها مدار الرياضة الدينية.

محاولة إقبال الرائدة التي قدمها في القرن العشرين في كتابه "**تجديد التفكير الديني في الإسلام**" عالج من خلالها الكثير من المسائل الدينية بمنهجية جديدة، **يمكن وصفها بالمنهجية الفلسفية بكل امتياز**، الأمر الذي يخول لنا أن نعد هذا الكتاب من أمهات المصنفات في الفلسفة الدينية بكل المقاييس، وفي بحثنا هذا نحاول التطرق لأهم القضايا التي تطرق إليها مقاله " هل الدين أمر ممكن؟".

أنواع الحياة الدينية :

يقسم إقبال الحياة الدينية إلى ثلاثة أطوار:

طور الإيمان، وطور الفكر، والثالث طور الاستكشاف محللا خصائص كل طور:

بالنسبة **لطور الإيمان** يتجسد في صورة نظام ملزم للفرد والأمة، وبالتالي نجد فيه الخضوع المطلق للأوامر الإلهية، خضوع يغيب فيه العقل، وبالتالي لا تستوعب فيه الأهداف البعيدة والعميقة للدين، ومع ذلك فالإيمان في هذا الطور أو النمط ذو فائدة لأنه يشكل استقرار المجتمع والأمة ككل، وبالتالي له "نتائج عظيمة في التاريخ الاجتماعي والسياسي لشعب من الشعوب"[1] رغم غياب فعل العقل هنا. لكن فائدة طور الإيمان قليلة النفع بالنسبة للفرد من الناحية الروحية الذي يريد أن يتعقل إيمانه، وبالتالي فإن الطور الثاني للحياة الدينية "**طور الفكر**" هوالذي يمكن من تفهم الدين ويبحث في الإلهيات وعموما يصفه إقبال بقوله: "في هذا الطور تبحث الحياة الدينية عن أصلها في نوع من الميتافيزيقا (الإلهيات)هي نظر في الكون متسق اتساقا منطقيا، ومن فروعه البحث في ذات الله"[2].

وكما سبقت الإشارة فإن **الإستكشاف يمثل الطور الثالث** وهو الأعمق لأن مستوى الحياة الدينية يقوى وتقوى معه طموحات الإنسان للظفر باتصال مباشر بالحقيقة القصوى، وهنا يصبح الدين "مسألة تمثل شخصي للحياة والقدرة، ويكتسب الفرد شخصية حرة "[3]، لكن هذه الحرية والقدرة لا تعني عدم الالتزام بالشريعة، على العكس تعني الوقوف على حقيقتها في أعماق الشعور، وهنا يستشهد إقبال بعبارة لصوفي مسلم الذي قال :"لا يتيسر

1- محمد إقبال :تجديد التفكير الديني، المقال السادس هل الدين أمر ممكن، ص ٢١٤
2- المصدر نفسه، ص ٢١٤
3- المصدر نفسه، ص٢١٤

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهم الكتاب الكريم حتى يتنزل على المؤمن كما تنزل على النبي" وفي ذات السياق نفتح قوسا على تجربة إقبال الشخصية مع القرآن الكريم والتي تتقاطع مع مقولة الصوفي، كان والد إقبال رجلا تقيا و هو المعلم الأوّل لمحمد إقبال، رباه تربية إسلامية، ثم ذهب به إلى مكتب تحفيظ القرآن في "سيالكوت"حيث يبقى جالسا حتى يستقبل الفجر فيصلي خلف أبيه، ثم يتلو القرآن، وقد حرص أبوه[١] على أن لا تكون قراءة إقبال كلمات تُلقى و آيات تتلى.

ومن الأحداث اللافتة في حياة إقبال وعلاقته بالقرآن والتي من خلالها رسم رؤيته للإسلام وللدين، هذا الموقف الذي عاشه ويذكره قائلا :

"تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم فكان أبي يراني فيسألني ماذا أصنع ؟ فأقول : أقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له:ما بالك يا أبي تسألني السؤال نفسه وأجيبك جوابا واحدا، ثم لا يمنعك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال :إنما أردت أن أقول لك، يا ولدي اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن، وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت ".[٢]

هذا الحدث الملفت في سيرة إقبال منه قد ندرك تشكل الدافع القوي لتأليفه "تجديد التفكير الديني"، فهذا الحوار الذي ظل يدور بين أب و ابنه لمدة ثلاث سنوات، ليس بالحوار العادي، مدلولاته بعيدة وعميقة، فلو قرأنا القرآن كما لو أنه أنزل علينا لاختلف أمرنا كثيرا، قراءة إقبال المتميزة أثبت الزمن فاعليتها، الزمن الذي كشف عن شخص فاعل، مجدد، جاء بنظرة جديدة للدين ودوره في حياة الإنسان، نظرة تأسست على فهم ذاتي، وعلى الاستلهام من الرياضة الدينية الشخصية باعتبارها معيار صدق، وهنا تحديدا نجد تجسيد الطور الثالث للدين، ثم إن إقبال يؤكد أنه لا يستخدم الدين إلا بهذا المعنى للطور الثالث أي الاستكشاف، أي يحل علم النفس محل الميتافيزيقا ويصير الدين تصوفا رغم الدلالات السيئة الحظ لهذا المعنى[٣].

المؤمن هو من يتحمل إيمانه ويستكشف حقيقة الدين والشريعة بمفرده وبالتالي يعيش التجربة أو الرياضة الدينية، بل الدين هو الذي يوضح ويجلي الشعور الإنساني.

1- الكيلاني نجيب، إقبال الشاعر الثائر، بيروت: مؤسسة الحياة، ، ط٣.، ١٩٨٠، ص ١٥.
2- أبو الحسن علي الحسني الندوي، روائع إقبال، دمشق : دار ابن كثير، ط 2 2006 م، ص ٥٢.
3- محمد إقبال، تجديد التفكير الديني، ص ٢١٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن التجربة هي الأساس والقاعدة والمحك في الدين كما هي في العلوم الطبيعية أو المذهب الطبيعي، وليس تأملا نظريا كما يشاع، وهنا يستعيد السؤال الكانطي ليثبت عكس إجابة كانط النافية . تساءل كانط هل من الممكن العلم بالميتافيزيقا ؟ أو ما وراء الطبيعة ؟ وقد رأى عدم إمكانية العلم منطلقا من حجج تنطبق على الحقائق التي يعنى بها الدين أيضا، الأمر الذي يرفضه إقبال، وبالتالي لا يبطل الميتافيزيقا أو الحقائق الدينية ولا يرجعها إلى مجرد التسليم أو الإيمان، بل هي تدخل في صميم وحدود التجربة[١] مستشهدا أيضا بما ذكره محي الدين بن عربي عندما قال: إن ذات الله تدرك بالإدراك الحسي، وإن العالم صورة ذهنية، وغيرها من الاستدلالات التي تفيد إمكانية العلم بالدين، وإمكانية ممارسة التجربة الدينية وعدم حصرها في التصورات النظرية، الأمر الذي يجعل تشخيص إقبال للدين تشخيصا متحركا فاعلا .

البعد العملي للدين:

يقول إقبال: "**القرآن الكريم كتاب يعنى بالعمل أكثر مما يعنى بالرأي**"[٢] و هذا من الأهداف التي سعى إقبال إلى توضيحها وتمنى تحقيقها في حياة المسلمين، حتى ينتقلوا من حضارة الرأي أو القول – بلغة طه عبد الرحمان – إلى حضارة الفعل، لكن كما أشار بنفسه أن هذا يصعب تحقيقه، لأن هناك أناساً بحكم مزاجهم من العسير عليهم أن يتمثلوا عالما جديدا ليستأنفوا الحياة على نسق يستلهم الرياضة الباطنية التي هي الهدف الأسمى للدين[٣].

تأملات إقبال في القرآن الكريم جعلته يقف على عديد من الحقائق التي مكنته من الكشف عن عمق و شمولية النظرة القرآنية، الأمر الذي جعله يقارن الإسلام بأديان أخرى كالمسيحية، ليقف على فاعلية الدين الإسلامي التي تنبع من الذات، ولكن دون أن تفصل هذه الذات عن عالم الطبيعة أو المادة .يقول إقبال: "لقد واجهت النصرانية في أول عهدها المعضلة نفسها -(يقصد معضلة علاقة الدين بالحضارة المادية)- فكانت أعظم ما عنيت به أن تبحث عن مستقر للحياة الروحية قائم بنفسه...و الإسلام يقر هذه النظرة تماما، ويكملها بنظرة أخرى هي أن النور الذي يضئ هذا العالم الجديد المتجلي ليس غريبا عن المادة بل هو متغلغل في أعماقه."[٤] والذي يفهم من هذا أن الإسلام رغم سعيه نحو الروح

1- تجديد التفكير الديني، ص٢١٥

2- محمد إقبال :تجديد االتفكير الديني، في الإسلام تر عباس محمود، دار الهداية :ط٢. ٢٠٠٠. أول المقدمة، ص٣.

3- المصدر نفسه ص ٣

4- تجديد التفكير الديني، ص١٧

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا أن السعي لا يتحقق إلا بالتعامل مع المادة، و هما في الأصل ليسا متناقضين وهو السعي نفسه الذي قامت به المسيحية لكن رأت الحل في إقصاء ونفي المادة وهنا نقطة الاختلاف.

القرآن الكريم يحمل معنى التجدد، ويبصرنا بحقيقة التغير الذي ينشده إقبال، والذي غاب عن المسلمين، ففضلوا النظر العقلي على العملي مفضلين اجترار ما قاله السلف، دون أن يساهموا بدورهم في الحضارة الراهنة، وتركوا الأمر لغيرهم ليقودوا حضارة اليوم التي تفتقد للإيمان، لذا يؤكد إقبال أن "الجمود على القديم ضار في الدين كما هو ضار في أية ناحية أخرى من نواحي النشاط الإنساني، فهو يقضي على حرية الذات المبدعة، ويسد المنافذ الجديدة للإقدام الروحاني، وهذا هو السبب في عجز الطرق التي أنتجها صوفية القرون الوسطى عن تخريج أفراد لهم قوة الابتكار على كشف الحق"[1] .

في إشارة إقبال لعجز الطرق الصوفية عن الدفع بالمسلم قدما نحو الإبداع رغم ما للصوفي من مجاهدة روحية أو رياضة دينية لتمثل الحقيقة، إلا أن التقليد والجمود حالا دون ذلك، معظم صوفية العصور الوسطى في عالمنا الإسلامي كرسوا الاستسلام إلى الواقع السلبي والسكون فيه مبتعدين عن المجتمع، مفضلين التضرع والدعاء لله لينقذ المسلمين مما يعانون من فتن و ضعف أطمع الأعداء فيهم. لكن لا يفهم من هذا الكلام رفض إقبال للتصوف، فهذا موقف نقدي فقط، لأن تقديره للتصوف معروف، بل إن إقبال يعول كثيرا على ما يسميه الرياضة الدينية التي بإمكانها عمل الكثير شريطة أن تلتحم بالواقع ومتطلباته، لأن "الدين و هو في جوهره الحياة الواقعة فهو الطريقة الجدية الوحيدة للبحث في الحقيقة، والدين بوصفه نوعا من رياضة عالية رفيعة يصحح أفكارنا في فلسفة الإلهيات، أو يجعلنا على الأقل نشك في الحركة العقلية البحتة التي تكون هذه الأفكار".[2]

إن الإسلام، بفضل عقيدة التوحيد، تمكن من أن يوحد بين طرق المعرفة ويخلق تكاملا بينها، الطريق العقلي مهم وضروري، لكن لا يجب أن نثق في الحركة العقلية ثقة عمياء كما تفعل الحضارة الغربية، مصادرنا الدينية بإمكانها فعل الكثير، خاصة في إدراك مباحث الميتافيزيقا أو فلسفة الإلهيات، إقبال يعول كثيرا على الدين كمنهج يوصله إلى الحقيقة، لكن بشرط أن يتم الالتفات إلى الاتجاه التجريبي للقرآن، أو كما يقول "وإنه لأمر عظيم حقا أن يوقظ القرآن تلك الروح التجريبية في عصر كان يرفض عالم المرئيات

1- المصدر نفسه، ص٢١٦

2- المصدر نفسه، ص ٢١٧. .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بوصفه قليل الغناء في بحث الإنسان وراء الخالق."[١] والذي يعنيه إقبال بالاتجاه التجريبي للقرآن، العلوم التجريبية التي قامت على دعوة القرآن العملية التجريبية التي خدمت المسلمين، وكانت سببا في النهضة الأوروبية لاحقا بعد أن تراجع المسلمون عن فهم القرآن كما يجب، واستدرك العالم المسيحي خطأه في رفض العالم الحسي .

الجانب العملي للدين يترجم الهدف الأسمى منه الذي هو تحقيق صلاح الإنسان وهدايته وتدبيره لنفسه وتكيفه مع معاشه ومع غيره، مرامي أساسية للدين تحقق حفظ الإنسان من كل النواحي، وبديهي لن تتحقق هذه المقاصد إلا إذا تضمنها الدين نفسه وبين السبل إلى تجسيدها . يقول إقبال: "وإذا كانت غاية الدين وهدفه الأسمى في تكيف الإنسان وهدايته في تدبيره لنفسه، وفي صلاته بغيره، فقد أصبح من الجلي أن الحقائق التي يشتمل عليها الدين ينبغي ألا تبقى غير مقررة، فما من أحد من الناس يقامر بالإقدام على عمل ما على أساس مبدأ خلقي مشكوك في قيمته".[٢]

وعموما يرفض إقبال الجمود، لأنه ضار في الدين، بل وفي أي نشاط إنساني لأن الجمود يسد منافذ الإبداع والنشاط الإنساني وأي إقدام روحاني مستشهدا بعجز الطرق الصوفية في القرون الوسطى عن الدفع بالأمة وتخريج أفراد فاعلين لديهم القدرة على الابتكار بسبب الجمود والاعتقاد بأن التجربة الدينية لا يمكن أن تكون حيوية رغم أنها حقيقة حيوية[٣]

هذه الرؤية الإيجابية الفاعلة للدين و للدين الإسلامي تحديدا والتي تشبع بها إقبال ونافح عنها، لم تأت صدفة؛ فالفضل كل الفضل يُرد إلى مدرسة الإيمان التي كانت مربيا له و مرشدا، بل هي مصدر قوته ومنبع حكمته، إيمان إقبال ليس مجرد عقيدة أو تصديق بسيط، بل هو مزيج اعتقاد وحب، فقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته مقتنعا أن الإسلام هو الدين الخالد، بل إن إقبال يرجع الفضل في تكوين شخصيته وتماسكه أمام مغريات الحضارة الغربية، وتماسكه أمام المادة لاتصاله بالنبي صلى الله عليه وسلم والذي يخصص الحديث عنه عندما يتعرض للنبوة بالنقاش والتحليل.

لقد كان محمد إقبال شديد الاعتداد بهذا الإيمان، كثير الاعتماد عليه، يعتقد أنه هو قوته وميزته، وأنه أعظم قدرا من العلم و العقل، كذلك المعلومات والمحفوظات لا تساوي

1- المصدر نفسه، ص ٢٣ .
2- تجديد التفكير الديني، ص ٨.
3- تجديد التفكير الديني، ص ٢١٦-٢١٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الإيمان البسيط، فهو يقول :"لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهرني و يغشي بصيرتي، وذلك لأنني اكتحلت بأئمة المدينة.[١]

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا، يغوص في بحر القرآن، فيخرج بعلم جديد و إيمان جديد، و كلما تفتحت دراسته، ازداد إيمانا بأن القرآن الكريم هو الكتاب الخالد الأزلي، و العلم الأبدي، و أساس السعادة. إيمان إقبال وحبه للإسلام كانا مصدرا للشعر الرقيق، و العلم العميق و الحكمة الرائعة و الشخصية الفذة، أي الدين الذي يدفع بصاحبه قدما، يقول :"وتزيد الحياة الدينية في طموح الإنسان إلى الاتصال المباشر بالحقيقة القصوى، وهنا يصبح الدين مسألة تمثل شخصي للحياة والقدرة، ويكسب الفرد شخصية حرة لا بالتحلل من قيود الشريعة، ولكن بالكشف عن أصلها البعيد في أعماق شعوره ."[٢] و انطلاقا من هذه المبادئ فهم إقبال القرآن الكريم، و أقبل على دراسته والاهتداء به في حل مشكلات العصر.

هذا فيما يخص علاقة إقبال بالقرآن الكريم، لكن أي دين و أي كتاب مقدس لا بد أن يدور ويتمحور حول إله يعبد، فما تصور إقبال لله؟ إقبال الذي نهل من الدرس القرآني الكثير كما سبقت الإشارة لكن كان لدرس الفلسفة حضور قوي أيضا عنده.

يؤكد دائما إقبال على الجانب العملي للدين وأهميته أكثر من النظر والتصورات، إن الأفكار الخاطئة تضلل في نظره الفهم، بينما العمل السيئ فإنه يشين الإنسان كله، وأحيانا يقضي على كيان الذات الإنسانية، الإدراك يؤثر تأثيرا جزئيا، أما العمل فإنه يتصل بالحقيقة اتصالا قويا فعالا[٣]. جدلية رائعة تجمع بين التجربتين الفردية والجمعية للفعل الديني.

حقائق الرياضة الدينية عند إقبال :

يعالج إقبال في مقاله وفي أجزاء متناثرة هذا الموضوع، فالبحث في الرياضة الدينية بوصفها مصدرا للعلم الإلهي أسبق في التاريخ من تناول غيرها من ضروب التجربة الإنسانية، والقرآن يسلم بأن الاتجاه التجريبي مرحلة لا غنى عنها في حياة الإنسان الروحية، فإنه يسوي في الأهمية بين جميع ضروب التجربة الإنسانية باعتبارها مؤدية إلى العلم بالحقيقة، فعناية القرآن بالطبيعة ليست شيئا أكثر من الاعتراف بأن الإنسان يمت بصلة للطبيعة، وهذه الصلة وسيلة للتحكم في قوى الطبيعة، ينبغي أن

1- أبو الحسن الندوي، روائع اقبال، دمشق: دار الفكر ج١، ط١، ١٩٧٥، ص ٢٩-٣١
2- تجديد التفكير الديني، ص ٢١٤
3- تجديد.....، ص ٢١٨

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تستخدم لغرض أنبل يؤدي إلى تحرر حركة الحياة الروحية في رقيها وتساميها لا بمجـــرد رغبة في التحكم، ولكي نكفل إدراك الحقيقة إدراكا كاملا، ينبغي أن يكمل الإدراك الحسي بإدراك آخر هو ما يصفه القرآن بالفؤاد أو القلب .

والقلب نوع من علم الباطن أو البداهة يصفه الشاعر الرومي في عبارة :

"إنه يتغذى بأشعة الشمس، ويصل بيننا وبين الحقيقة، غير تلك الوجـــوه المتـــأخرة لإدراك الحواس"

والقلب قوى ثري، هو مما يتحدث به لا يكذب أبدا، ولا ينبغي أن نعده قوة خاصـــة خفية، فما هو إلا أسلوب من أساليب الحقيقة ليس للحس أي دخل فيه، وهو مجال حقيقـــي وواقعي ككل ضرب آخر من ضروب التجربة، وإن وصف رياضة القلب بأنها روحانيـــة أو أنها من خوارق الطبيعة، و وضع تفسيرات لها ضرورة فرضتها الحياة.

وهناك دلالة على أن الرياضة الدينية الإنسانية كانت منذ أقدم العـــصور، وتغلغـــل سلطانها في تاريخ البشرية إلى حد يجعل من العسير علينـــا أن نعـــدها مجـــرد وهـــم لا غير.من جهة أخرى تناول الرياضة الدينية بالنقد والتمحيص ليس فيه شـــيء مـــن عـــدم الاحترام لها، فالإسلام كان أول من تناول الظواهر الروحية بالنظر النقدي.[١]

إذن مما تقدم يتضح أنه ليس هناك أسباب تجعلنا نقبل المـــستوى المـــادي للتجربـــة الإنسانية على أنه حقيقة ونرفض غيره باعتباره غامضا، فحقائق الرياضة الدينية حقـــائق كغيرها من الحقائق التجربة الإنسانية، وكل هذه الحقائق تتساوى مع غيرها في قدرتها إلى التوصل إلى المعرفة، و في هذا يقول إقبال: "إن أول مسلم أدرك معنـــى تـــصوف النبـــي صلى الله عليه وسلم هو ابن خلدون الذي تناول بالنظر النقدي الظواهر الروحانية[٢],

كذلك يؤكد إقبال أن أول ما يلاحظ على هذه التجربة أنها رياضة تصل إلى الـــنفس مباشرة، فهي لا تختلف عن غيرها من مستويات التجارب الإنسانية التي تمدنا بالمعرفـــة، كذلك أن هذه الرياضة لا تقبل التحليل لأنها تمثل حالة الصوفية لحظة من الاتصال الوثيق بذات أخرى فريدة سامية تفنى فيها الحياة الشخصية الخاصة[٣]، هي أشبه بالـــشعور منهـــا بالعقل، وما يعلنه الصوفي من تفسير لفحوى شعوره الديني يبلغ إلى النـــاس علـــى شـــكل صور أو قضايا.[٤]

1- تجديد التفكير الديني، ص٢٤- ٢٥
2- المصدر نفسه، ص٢٧
3- المصدر نفسه، ص ٢٨
4- المصدر نفسه، ص٣٠

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما يمكن قوله إن التجربة الصوفية هي تجربة فريدة وخاصة بالنبي، لا يمكن نقل شعور الصوفي إلى الناس، بل يمكن أن يبلغ فكره لهذه التجربة بشرحها، ومحتويات الشعور الديني لا يمكن الاطلاع عليها، وعلى هذا يرى محمد إقبال أن الدين وإن كان يبدأ بالشعور لما يحدث في تاريخه أن اعتبر نفسه أمرا شعوريا لا غير، بل كان يبذل جهدا موصولا في عالم الفلسفة العقلية. إقبال لا يغفل الحديث عن التصوف المسيحي، حيث كانت مشكلة التمييز بين مثل هذه الرسالات والتجارب التي ربما كانت من قبيل المعجزات الإلهية حقا وبين غيرها مما استطاع الشيطان بخبثه أن يزيفها، ومشكلة التصوف المسيحي كما يقول هي مشكلة كل تصوف.[1]

على ضوء ما قيل يمكن أن نخلص إلى أن الحالة الصوفية باعتبارها متفردة تظل متصلة بالتجربة العامة لكن سرعان ما تتلاشى، وإن كانت تخلق في النفس إحساسا عميقا؛ فالصوفي والنبي كل منهما يعود إلى مستوى التجربة وإن كانت العودة مختلفة، كذلك إن مجال التجربة الصوفية من حيث إنه السبيل إلى المعرفة لا يقل عن أي مجال من مجالات التجربة الأخرى .

خامسا : تناغم العقل والإيمان في فلسفة إقبال :

إن النقاش في المسائل الدينية أثار عديداً من القضايا في محاضرات إقبال التي فرضت نفسها فرضا، منها هل الدين يقوم على التسليم فقط أي الإيمان أم أن لآليات الاستدلال الفلسفي حضورا في المسائل الدينية ؟ من هنا حاول فيلسوفنا أن يقدم وجهة نظره حول علاقة الفلسفة بالدين أو موقع الإيمان من العقل، وهي الإشكالية التقليدية التي تطرقت إليها كل الفلسفات الدينية، أو كما اصطلح عليها المتكلمون بعلاقة العقل بالنقل.

كان إقبال من أكثر مفكري المسلمين إحاطة، ومن أشدهم ابتكارا، في الوقت نفسه كان واسع المعرفة بمذاهب الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية، كما كان على دراية بالمبادئ الأساسية في العلوم الطبيعية و البيولوجيا والعلوم الاجتماعية، فأمدته هذه المعرفة بمادة خصبة صاغها بعبقريته فلسفة صافية جمعت بين النظرة العلمية وما تتسم به من دقة وضبط وتحديد وارتباط وثيق بالواقع، وتركيز على التخصص الدقيق، جعلته عظيماً عبقريا بمقدار العطاء والإنجاز الذي أثمرته موهبته هذه من نظريات واكتشافات أسهمت في تغيير الحياة المادية والفكرية في العالم الإسلامي المعاصر، إلى جانب النظرة الإيمانية

1- المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٤

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الروحية الصوفية، بما تتضمنه من انطلاق و إفساح لآفاق الـنفس، وتحليـق فـي عـالم المطلق.[١] وبالجمع بينهما في تلاحم فعال ظهرت عبقرية محمد إقبـال الفـذة، وعظمتـه الحقيقية، وبرز في الميدانين: ميدان العقل وميدان الوجدان، ميدان العلم وميدان الإيمان.[٢]

مبدئيا نقول تُعد فلسفة محمد إقبال من الفلسفات الحية المفتوحة، فهـي ليـست مـن طراز الفلسفات الساكنة المغلقة على نفسها، وهذا واضح من خلال انتمائه إلى ثلاثة أحياز روحية تمثل بحق منابع آثاره العظيمة، وهي حيز القارة الهندية، وحيز العالم الإسـلامي، وحيز الفكر الغربي. فهو مسلم كشميريٌّ الأصل مثقف بالقرآن، وبالفيانتـا، وبالتـصوف العربي و الفارسي، وفي الوقت نفسه متضلع في الفلسفة الغربية، مطلـع علـى مـشاكلها المعقدة. قرأ وفهم كانط و برجسون ونيتشه وغيرهم، ونحت ممراته الخاصة التـي قادتـه شيئا فشيئا إلى أرضه الفلسفية الروحية التي لا تشبهها أرض أخرى[٣].

لقد عمل إقبال على إعادة التوازن المفقود في زماننا بين الدين والدنيا، وبين الـروح والمادة، وكان القصد من وراء ذلك إصلاح الفكر الديني في العصر الحديث، فنقطة البداية في دعوته التجديدية تعلن وتعبر عن الإيمان، من هنا كانت فلسفته فلسفة إسلامية تتـضمن دعوة لبعث جديد للأمة الإسلامية في أرجاء العالم كله، من مشرقه إلـى مغربـه، وهـذه الفلسفة الإسلامية بالأساس منطلقة من الفكر الإسلامي الأصيل الذي يعبر عـن أبعـاد لا نهاية لها. أبعاد قابلة للثراء بحيث يستطيع هذا الفكر الإسلامي أن يستوعب كل الثقافـات والحضارات على مر العصور. إن أهم مبادئ هذه الفلسفة الجديدة اعتمادها على المصادر الإسلامية الأصيلة والتصوف الإسلامي، وهو المفهوم الذي يُطلق عليـه خـودي= Ego =الأنا" أو "الذاتية" الإلهية والإنسانية .

ولا يطعن في هذه الفلسفة تأكيدها على وجود الذات والشخصية والفردية كما يظن البعض. إذ إن هذا التأكيد لا يعني دعوة للأنانية بقدر ما يعني أن الذاتية تعبير عن الروح المُنشئ الخلاَّق الذي أودعه الله تعالى في الإنسان، فكرة الذاتية عند إقبال لا تعني الأنانيـة أبدا، والدليل على ذلك هو أنه بالرغم من تأكيده على وجود الشخصية والذاتية لكل فـرد، يؤكد باستمرار في كتاباته الفكرية والشعرية على أنه يوجد نوع من التناسـق والانـسجام والتناغم والتوافق بين هذه الوحدات أو الفرديات، فكل فرد يُعد قطعة فـي بنـاء الوجـود

1- عثمان أمين، رسالة محمد إقبال، مجلة اقباليات، العدد الرابع ٢٠٠٤ص٤١.

2- محمد كمال جعفر، النبض والحيوية في الفلسفة الدينية لإقبال، ضمن كتاب (محمد إقبـال: قـصائد مختـارة ودراسات)، إعداد وتقديم: د. خالد عباس أسدى، الناشر: القاهرة مكتبة مدبولي، ، دط، د س ص: ٣٧

3- مانويل فايشر، محمد إقبال وعلاقته بالثقافة الغربية، مجلة :فكر وفن، العدد ٣٢ خاص بإقبال، ١٩٧٩م، ص:٥

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكبير الشامل، يدخل فيه ويتعاون مع مكوناته، فهو منفصل ومتصل في آن واحد، منفصل إذا نظرنا إليه في حد ذاته، ومتصل إذا نظرنا إليه في علاقته بالآخرين كالأواني المستطرقة في انفصالها واتصالها في آن واحد، أو كما يُمثِّلُ له إقبال بـ "شَمْعِ الْحَفْلِ" الذي هو وحيدٌ ورفيقٌ في الوقت نفسه.[1]

1- عاطف العراقي، العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر القاهرة، دار قباء القاهرة دط ١٩٩٨ ص٣٥

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاتمة:

إن فلسفة إقبال باعتراف كبار المستشرقين أنفسهم قد أسهمت في تيار الفلسفة العالمية بكثير من الآراء القيمة، وأهم هذه الآراء في الذاتية، حيث قضى بواسطتها على الانشقاق والازدواج الذين كانا يوجدان في الأذهان والمبادئ الفلسفية وخاصة الإسلامية منها مابين الجسد والروح، ذلك الانشقاق الذي تعدى المناقشات في المجالس والندوات الفكرية إلى صميم الحياة الإسلامية وفرق القوم إلى شيع .[١]

من هنا نجد محمد إقبال قد ثابر في فلسفته وجهاده مدة ثلاثين سنة متتابعة، شاهد خلالها بأم عينه ثمرات أعماله ونتائج دعوته، مئات من المثقفين الجدد ممن تخرجوا في أوروبا وكادوا يزيغون عن جادة الصواب ويضلون عن سواء السبيل لولا فلسفة إقبال وشعره وافتتانهم بحكمة تلك الفلسفة، فالذين لم يؤثر فيهم وعظ المشايخ ومقالات المحققين من العلماء، والذين ما كانوا ليلتفتوا إلى دعوة المصلحين من الزعماء لاغترارهم بأباطيل الغرب و ولوعهم بزخارفه تأثروا بآرائه وأفكاره من حيث لا يشعرون.

وربما يعود هذا النجاح لخطاب إقبال التجديدي لتنوع مصادر معرفته، فكما رأينا أن إقبال نهل من منابع الدين و الفلسفة والشعر الكثير، هذه ثلاثية ترسم ملامح إقبال المفكر المسلم الشاعر و الفيلسوف، من جهته يؤكد على وجود مباحث مشتركة بين الدين والفلسفة والشعر، لكن هذا الأخير تجربة شخصية مجازية مبهمة وغير محددة ولا يمكن اتخاذه منهجا أو متكأ معرفيا رغم أهميته، والدين معروف عنه القول بالإيمان والتسليم وأنه يفوق الشعر وقدرات العقل، ومع ذلك يتساءل إقبال "فهل من الممكن إذن أن نستخدم في مباحث الدين المنهج العقلي البحت للفلسفة ؟ إن روح الفلسفة هي روح البحث الحر، تضع كل سند موضع شك، ووظيفتها أن تتقصى فروض الفكر الإنساني التي لم يمحصها النقد إلى أغوارها، وقد تنتهي من بحثها هذا إلى الإنكار، أو إلى الإقرار في صراحة يعجز التفكير العقلي البحت عن إدراك كنه الحقيقة القصوى، أما جوهر الدين هو الإيمان، والإيمان كالطائر يعرف طريقه الخالي من المعالم غير مسترشد بالعقل".[٢] هل يستنتج من كلام إقبال استغناء البحث في الدين عن المنهج العقلي، بما أن الإيمان يحلق بصاحبه كالطائر ويجد طريقه دونما حاجة إلى مرشد حتى وإن كان هذا المرشد هو العقل، بما أن هذا الأخير كثيرا ما يقر بعجزه عن اكتناه الحقيقة القصوى ؟

1- عثمان أمين، رسالة محمد إقبال رسالة محمد إقبال، مجلة إقباليات العدد الرابع، ص٤٤

2- تجديد التفكير الديني، ص ٧

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إقبال يؤكد أن الدين أكثر من مجرد الشعور، لأن هذا الأخير يجب أن يكون مشبعا برضا النفس، والنفس لا ترضى حتى تقنع أي إيمانها يجب أن يستند إلى علم ومعرفة، أي العقل حاضر في المعرفة الدينية والتاريخ يثبت ذلك، الفرق الدينية والكلامية والمتصوفة يحضر عندها العقل حضورا جوهريا بمسافات بين القرب الشديد والبعد النسبي وما إلى ذلك[١]، من هنا كانت محاولة إعادة بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناءً جديدا محاولة تجمع بين المأثور وجديد المعرفة الإنسانية، يقول إقبال: "ولقد حاولت في هذه المحاضرات التي أعددتها ...بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناءً جديدا آخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية، من تطور في نواحيها المختلفة . واللحظة الراهنة مناسبة كل المناسبة لعمل كهذا ."[٢] كلام منطقي ينم عن خبرة ومعرفة لا يقصي مصادر المعرفة التي تثري الخبرة الإنسانية، وهذا ما يذكره القرآن نفسه، النظرة الشمولية المتكاملة مكنت إقبال من أن ينوع من مصادره ووسائله، فلا يتحرج في أن يلجأ إلى فيلسوف أو صوفي أو عالم أو شاعر، فالمقام له ضرورته .

وفيما يخص علاقة الدين بالفلسفة يؤكد إقبال أن الدين ليس أمرا جزئيا، وليس فكرا مجردا فحسب، ولا شعورا مجردا، بل هو تعبير عن الإنسان كله، ولهذا يجب على الفلسفة، عند تقديرها للدين، أن تعترف بوضعه الأساسي، ولا مناص لها بالتسليم بأن له شأنا جوهريا في التأليف بين ذلك كله تأليفا يقوم على التفكير.[٣]

أما عن الفلسفة اليونانية فإنه يقول:"إن الفلسفة اليونانية –على ما نعرف جميعا- كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسلام، ولكن التدقيق في درس القرآن الكريم، وفي تمحيص مقالات المتكلمين على اختلاف مدارسهم التي نشأت ملهمة بالفكر اليوناني، يكشفان عن حقيقة بارزة: إن الفلسفة اليونانية مع أنها وسعت من آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام، غشت على أبصارهم في فهم القرآن"[٤]

كما ينبه إقبال إلى مسألة غاية في الأهمية، كانت قراءة بعض علماء الإسلام للقرآن بعد أن نهلوا من الفلسفة اليونانية وانبهروا بها، فجاءت قراءتهم قاصرة، من ذلك حصروا المعرفة في أداة العقل رغم أن القرآن يعد السمع والبصر من أجل نعم الله على عباده، بل يسألهما الله في الآخرة عما فعلا في الدنيا، وهذه النظرة التي تقدر المعرفة الحسية غابت عن فلاسفتنا المتأثرين باليونان الذي احتقروا عالم التجربة الحسية والنوافذ المؤدية إليه.

1- المصدر نفسه، ص ٨

2- المصدر نفسه، ٤

3- المصدر نفسه، ص ٩.

4- المصدر نفسه، ص١٠.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com